

الفصل الثاني والعشرون

وأقبل سيدي الجديد عليّ مبتسمًا راضيًا يحدق النظر في وجهي تحديقًا طويلًا، ثم يفصل النظر إلى جسمي كله تفصيلًا، كأنه يمتحن متاعًا يريد أن يشتريه، ولو قد استطاع لنهض إليّ فاخترني اختبارًا وتعرفني باللمس، ولكنه كان فيما يظهر قد احتفظ لنفسه ببقية من حياء، فاكتمت بهذه النظرات المتصلة الطوال التي تجرد المرأة من ثيابها تجريديًا، والتي كنت ألقاها مضطربة لها أشد الاضطراب نائرة لها أشد الثورة.

ولكنني كنت أتمالك ما وسعني الجهد وضبط النفس، حتى لا يرى عليّ اضطرابًا ولا ثورة ولا شيئًا ينكره، وهو يسألني عن اسمي، وعن أهلي، وعن أمري كله، فألفق له من ذلك ما ألفتق، وأزين له من ذلك ما أزين، وهو يسمع مني مصدقًا لي أو غير حافل بما يسمع، إنما يريد أن يعرف صوتي ووقع حديثي، ثم هو يأمرني أن أقبل وأن أدبر، وأن أدنو وأن أبعد، وأن أنحرف إلى يمين وأن أنحرف إلى شمال، وأنا أستجيب لكل ما يدعوني إليه، وقد هدا اضطرابي وسكنت نفسي، وعاودني صوابي، وأنا أتحدث إلى نفسي بأن هذا الفتى يعرف حقًا كيف يكون شراء الرقيق ...!

ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أنني سألقاه قائمة باسمه. أقبل إلي في ظلمة الليل يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص، ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح، حتى أخذه شيء من الذعر، فتراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض جعل يأخذ لونه الطبيعي قليلًا قليلًا: ماذا؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن؟ أتعلمين أين أنت من الليل؟ قلت: لقد جاوزت ثلثيه، وما كان ينبغي لي أن أنام قبل أن ينام سيدي، فما يدريني! لعله يحتاج إلى شيء.

قال وقد عاد إليه ثباته وهدوء نفسه، واسترد صوته شيئًا من قحته المألوفة ودعابته البغيضة: ما رأيت قبلك خادمًا مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتظرة لمقدمه إلى